

## الفراعات تستيقظ



من تجهيز  
«البحر»  
للغات  
الجزائري  
قادر عطية  
(2007)

تكون مجرد بقايا عرائس ابنته التي كان يمزقها بسادية سافرة نكاية بزوجته التي لم تعد طيعة مثلما يريد. لقد أصبحت تدعي فهمها للكثير من الأمور التي لا يستطيع فهمها هو نفسه. لقد جهرت في مواقف عدة، وقالت أكثر من مرة: «لم أعد أحب هذه الحياة... حياة تشبه الكوابيس» وكررت: «أنت مجرد ظل... أنت مجرد ظل... الظل أفضل منك...»، وكانت تختم كلامها دوماً بقهقهة خبيثة مليئة بالشماتات واللؤم. لم يحتمل ذلك. لم يفهم حتى معنى أن يكون ظلاً. ألا يشبه الأمر مثلاً أن يكون ظل شجرة؟ «ظل؟ ظل ماذا؟» هكذا كان يردد بصوت مكتوم خشية أن يسمعه أحد ما. «إذن أنا مجرد ظل؟» كان يضيف دون أن تصر أسنانه أو يكور قبضة يده أو أي شيء من هذا القبيل. لقد خذله الجسد. لم يعد شاباً مثلما يليق بعامل يشتغل في محطة طرقية مزدحمة وتفوح بالآفاقين. عامل المحطة يجب أن يبقى دوماً شاباً. لا يجب أن يشيخ أبداً. استحالت عليه زوجته إذن. أصبحت حياته شبيهة بالعبث مثلما استنتج دون أن يكون قد قرأ سارتر أو كامو. حياة بدون قيمة وبدون أية نكهة. لذلك أدار ظهره لكل شيء. لقد أصبح مجرد مشاء يهيم في الطرقات قبل أن يعود في إحدى الليالي ويجهز على زوجته خنقاً بيديه الضعيفتين اللتين لم يستعملها يوماً إلا في حمل حقائب مسافرين لا يطيقون أداء أثمان تذاكر القطار فيهرعون إلى المحطة الطرقيّة، راغبين في اختزال آتاع السفر. لذلك تحول إلى مجرد فزاعة منتهية الصلاحية في السجن لا يختلف كثيراً عن مرق عرائس ابنته التي كان يمزقها في حالات الغضب. وهو الشيء الوحيد الذي كان يستطيع فعله دلالة الحنق الشديد.

أنت أيضاً مجرد فزاعة. هكذا تبدو لنفسك خاصة حينما ترتدي تلك البذلة السوداء التي تبدو فيها كموظف في ديوان وزير رغم أنك لست سوى بواب في الوكالة البريدية. لقد كنت بارعا دوماً في اقتناص فرصتك حينما يبدأ موسم التنزيلات. البذلة تجعلك تبدو كبرجوازي هارب من زوجته التي تنتمر عليه كلما تخطت أقدامه عتبة المنزل. لكنك مجرد كادح صغير يحلم بجاهٍ مزيف كأنه بطل قومي شارك في كل معارك التحرير، رغم أنه لم يفارق حيته السكني ولو ليوم واحد: اليس هذا حال كل الأبطال المعاصرين على الأقل؛ أبطال المسلسلات والفيديو كليبات الأشبه بالأكال السريع، والذين لا يختلفون عن الفزاعات؟ حينما تلبس بذلتك السوداء تصبح كمدعو لحفلة تنكرية. تدس يديك الخفيفتين في جيبي سروالك بحنكة مهرج في سيرك إيطالي، مطيلاً التحديق في المرأة المستلقية بشكل غير مريح على جدار الحمام. تتحول بسرعة البرق إلى جنّلمان بعطر رخيص يليق بأمسية في مقهى «جوهرة». هناك ستحكم قبضتك على نظرات الجميع. تجعلهم كلهم شاخصي الأبصار نحوك مرددين عبارة «أواه» التي تعلن من خلالها انتصارك على خيانتك كلها من الألف إلى رسوبك غير المبرر في امتحان البكالوريا الذي جعلك تقبر كل أحلامك وتحولها إلى أهات مكتومة تصدرها بشكل متسلسل حينما ترى زملاء الدراسة الذين تسلقوا كل شيء إلى أن وصلوا إلى التنعم بالسيارات الفارهة والمكاتب المكيفة.

أليس كل هؤلاء مجرد فزاعات؟

\* كاتب مغربي

يبديو وكأنه تلقى منك شتيمة، لذلك كنت تحس بأسنانه تصرّ ويفرائسه تصطك. فحينما كان يدس الدرهمين في جيبه كان يبدو وكأنه يكور قبضته مستعداً للكمك. لكنه كان يتراجع لسبب ما قد يكون لعنة جن ورتها عن أبيه. كل هذا جعله يبدو لك كفزاعة في حقل. الرصاص الذي جاء مسرعاً وانقضّ على الصنبور بشكل مثير للغيبان كان مجرد فزاعة. لأنك اكتشفت فجأة أنه نسي المطرقة كما نسي الكماشة. العطل التافه الذي كان عبارة عن تسرب بسيط للماء سيحوّله إلى مشكلة عويصة لا حل لها. كان يصفر ومن حين لآخر يدعو لك بصوت جهور وهو في قرارة نفسه كان يدعو لنفسه بالخفاة من هاته الورطة. لقد أبان عن باعه القصير وقلة حيلته. فهو ليس سوى مساعد رصاص تخلى عن هذه المهنة أو انتقل إلى مهن أخرى - طفق يحدثك عنها - وربما يكون طرده رب الحرفة لخطب أو لجرم ما كان قد ارتكبه. لقد ظهرت لك عيناه كقنطين مليئين بالشر. عيناه الصغيرتان اللتان تذكرانك بالبطل الشهير «تانتان»؛ وربما كان يبدو لنفسه كمخلص أسطوري سيجعلك تجتاز كارثة الصنبور بسلام، بل إنه دعاك لعدم التردد في الاستعانة بخدماته مهما كانت الورطة التي تقع فيها. غسل يديه وقبض أجره وانصرف مسرعاً مثلما جاء كان هناك شخصاً ما ينتظره، أو قد تكون زوجته طلبت منه عدم التأخر لسبب ميبت. لم يمر سوى وقت قصير لتكتشف أن تسرب الماء لا يزال قائماً. وحينما أخبرته بذلك تأسف وضرب بيده على جبهته دلالة الخيبة ووعدك بالمجيء ثانية لإصلاح الأمر، ولكنه لم يأت قط. هذا يعني أنه مجرد فزاعة بنظرك. عامل المحطة الطرقيّة هو الآخر لا يختلف عن فزاعة. ورتته الزرقاء الممزقة في أكثر من مكان كانت شاهدة على عدم خلوه من شبهة التماهي معها. جيوب الوزرة كانت دائماً ممثلة بأشياء مبهمّة قد

تامة التوضيب. أشار لأمي بضرورة التحول إلى أرنب. ثم تدارك الأمر مشيراً إلى أن هذه الحمية تخلو من اللحوم، لذلك فأمي لن تختلف عن أرنب. اعتبرت الأمر شتيمة لذلك لويت عنقك بشكل هستيري وظهر عليك التوتر والغضب. فالتفت إليك الطبيب كأنما يلتفت إلى عازف آخر أخطأ تتبع الخطوات الصارمة للحن الرديء الذي يشبه عواء الذئب. لم يصدر عنك أي رد فعل فيزيائي يدل على الغضب. لذلك استمر الطبيب في تلاوة خطبته ضاغطة على الحروف الأخيرة في كلماته كأنه يضرب بمطرقة حديدية على رأس أمي التي لم تكن تفعل أي شيء سوى الإبتسامة لوقع المطرقة على جسدها. وفجأة توقف عن الحديث منهيها المقابلة بشكل فجائي كأنه انتهى من أكل ما، بينما كانت أمي تتوغل بشكل فادح في طرقات أطروحة الطبيب الذي يشبه الفزاعات. حارس السيارات الذي كان يلبس سترته الصفراء الخاصة بشكل مكلف كحيلة يريد أن تنظلي على الجميع هو مجرد فزاعة بالنسبة إليك. الحارس الذي يتحول إلى مدع عام يلقي ألهم يمنة ويسرة كمزارع يُبذر القمح في أصيل يوم خريفي. إنه لا يتوانى عن التحول إلى أفاق متى رأى الفرصة سانحة لذلك. يشتم طيلة الوقت حظه العائر الذي جعله يمتهن مهنة يمجتها كل المقت. كل التافهين تقلدوا مناصب عليا إلا هو، مثلما كان يردد طيلة الوقت. يلعن غريزته التي ورطته في سلسلة من الهزائم. كنت متأكداً أنه كان يقصدك. كنت سنقول له: «روح عن نفسك. أنت ربما تقصد البذلة التي أردتها ولا تقصدني أنا». لكنه كان مصراً على حدجك بنظراته ذات الوقع الأشبه بوقع النبال على جسد جندي منكم. فكرت في تحريره من سجن الكراهية الذي يقضي به فترة سجنية غير محددة. لكنك كنت تتراجع عن ذلك مدركاً متانة جدران السجن التي يحصن بها نفسه. حينما يقبض منك واجب الحراسة

إخفاء ذلك عن الجميع، بما في ذلك أنا طبعاً. لكنني كشفت أمره بحيث لم تنطل على حبله. وأنا لم أقرأ أي كتاب عن الفزاعات أو الظلال. وهل كل من يريد الحديث عن الفزاعات سيكون مضطراً ليقرا كتاباً عنها أو موسوعة يشتريها بالتقسيم من دار الأهرام تتحدث بشكل مبسط عن تاريخ الفزاعات مرفقاً بالصورة التوضيحية كما لو أنها موجهة لأطفال الطور الابتدائي؟

أجزم بأن جاري مجرد فزاعة؛ فبعد أن سيح حديثه لم يستطع أن يمنع عنها العاصف والرياح، كما لم يستطع منع الجيران من تداول أمره في نميمتهم التي تتم في الصباح أمام مبنى العمارة على مرأى ومسمع من الجميع، بحيث إن ضحكاتهم المنفردة لم تكن تحدث إلا في خاتمة أحاديث تسخر من السياج. كما أنه لم يمنع البراعم من الإزهار. لذلك فهو مجرد فزاعة فاشلة. الطبيب المتحذلق بكرشه الذي لا يليق بطبيب هو مجرد فزاعة أيضاً. كان طيلة الوقت ينبه أمي إلى وزنها الزائد وإلى نسبة الكولسترول الزائدة في جسدها دون أن ينتبه لجسده المترهل من شدة الأكل والخمول. طبيب ثرثار كان يتكلم كمقدمي النشرت الجوية الذين لا يكفون عن ترديد لازمة الغيوم التي تغزو السماء في الجزء الشمالي دون أن ينسوا الرياح التي ستكون معتدلة. طبيب باوداج لا تليق سوى بعازف مزار في فرقة من الهواة. طيلة حديثه كنت تتخيله ممسكاً بمزار أو سكسفون وهو يحاول أن يعزف بشكل رديء لحناً ظل يستمع إليه طيلة مساءات الأحاد حينما تتأخر زوجته خارج البيت لأسباب لا يعلمها أحد. كما لم يستطع أن يقنعك بشيء، كما لم يستطع إقناع أمك بضرورة اللجوء إلى حمية قاسية كالعقوبات القديمة في أزمة الطغاة. كان النوم قد بدأ يداعب جفنيك وأنت تتعاب كسائق حافلة تقل تلاميذ مدرسة عبر طرق قروية ملتوية غير

### 1- استقالة الفزاعات

أنت تقصد أن تكون هادئاً. لقد كنت دوماً تتوخى استعارة هدوء شجرة في أيام تنقرض فيها الرياح غير مأسوف على صخبها. الرياح التي تستطيع التصرف بقسوة تجاه أي شطط تقترفه الغيوم. الرياح كانت دوماً ورطة الأشجار. الرياح التي تدعي حمل نبوءات الفصول التي تأخرت في زيارتها لحقول بعيدة تشكو من ثرثرة فزاعات خلدت لشيخوخة مبكرة دون أن تنال من جسرة غريان لا تُعير أي اهتمام لقوانين القبولة لدى ظلال أبريل. لقد تقدمت بشكاوى كثيرة لدى شجرة الصنوبر الوحيدة. لكنها كانت تجيبها بأنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء قبل قدوم الرياح. لذلك استطاعت أن تحصل على استقالتها.

استقالة الفزاعات كانت فادحة، حتى أن الغريان نفسها احتجت. لقد اعتادت رفقتها، بل هي التي كانت تفشي لها أسرار الرياح. أبريل أيضاً تكدر واقترب شتائم كثيرة في حق لا أحد. في الحقيقة هو بدون أعداء منذ سنوات كثيرة. لكنه لم يستطع عالماً بدون فزاعات. لذلك تخلى عن سلطته لماي الصارم بعد أن حكى له الكثير عن خيانة الفزاعات. لذلك أنت هادئ الآن بعد أن تأكدت من استقالة الفزاعات.

لكن كيف سيبدو العالم بدون فزاعات؟

### 2- لماذا يبدو لك الجميع مجرد فزاعات؟

سأشرح لك ذلك بالتفصيل، وإن شئت سأشرح لك ذلك بالتفصيل الممل. ولكنني أعددكم بأن أتخلى عن كل زيف وأكون صارماً في الحكمي كما كنت دوماً دون أن أتهاون فيه: جاري مثلاً يبدو لي كفزاعة حقيقية. لو لم يكن فزاعة لما سيح حديثه بإحكام. هذا ما أعتقد على الأقل. وكى أكون صريحاً أكثر سأقول إنه يحاول

### مصطفى النيسي \*